معهد الملك سعود للتربية والصناعة :

سنة (١٣٧٥) هـ تحولت « المدرسة السعودية للأيتام » إلى معهد حديثٍ تديره شركة أجنبية ، أسْمَوْه « معهد الملك سعود للتربية والصناعة » وكنت أحد طلاب المدرسة الأولى فصرت من طلاب هذا المعهد . وكان نظام الدراسة في المعهد ألمانيًا ؛ فكنت أذهب إلى المعهد عند شروق الشمس ؛ ويستغرق اليوم الدراسي نهارًا كاملًا نتناول خلاله طعام الغداء في مبنى المدرسة الذي بُني على أحدث طراز ، وكنا طلاب المعهد نلبس زيا موحدًا ؛ عبارة عن قميص أبيض و « بنطلون » أزرق ، و « كرفتة » على شكل وردة ، و « بريهة » ـ أي قبعة ـ كالتي يلبسها الطيارون ، وكانت اللغة المقررة في المرحلة الإبتدائية الإنكليزية ، وفي المرحلة المتوسطة الفرنسية ، وفي المرحلة الثانوية الألمانية ..

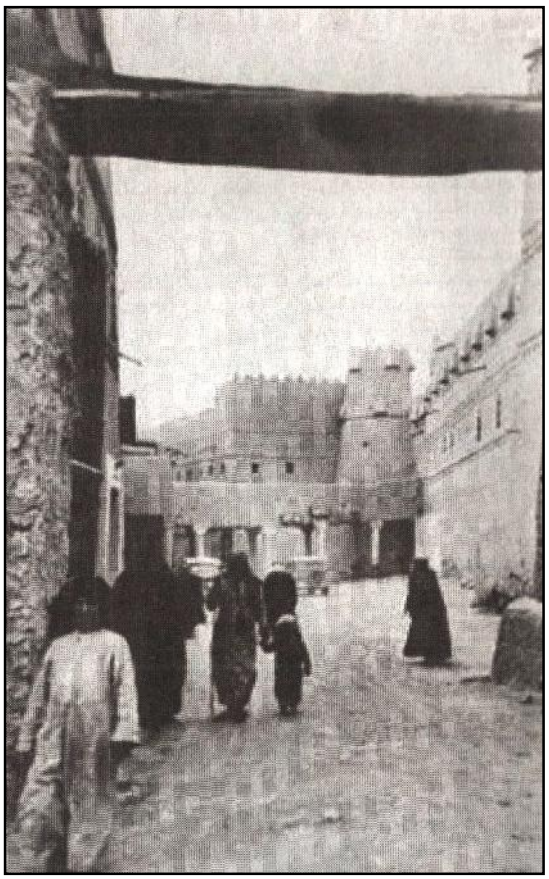

أحد شوارع الرياض سنة ١٣٦٦ هـ

ولك أن تقارن هذه الحال التي آلت إليها « مدرسة الأيتام السعودية » بموقف أهل الرياض منها عند إنشائها سنة ١٣٦٦ هـ ؛ إذ من المفارقات المتناقضة وجود معهد للتربية والصناعة تديره شركة أجنبية في بلد لا زالت آثار البداوة قائمة فيه ونواب الهيئة يجلدون المُلحنَ حد الخمر إذا ضُبطَ وهو يدخن ؛ وفي مساجد الرياض كانوا يُحضرون المُصلين ، أي يقرؤون أسماءهم قبل الإقامة ، ومن يُضْبَطُ متخلفًا غائبًا قد يُعاقب ..

هذه قفزةٌ غيرُ مفهومة ؟ !

وذاتَ يوم من أيام سنة ١٣٧٦ هـ ؛ وفي الصباح الباكر ؛ وبينما أنا أُصْلِحُ « كرافتتي » وقبعتي ؛ استعدادًا للانطلاق إلى المعهد ، سمعت الوالد يناديني :

ـ يا أيزنهاور .

وكان يُشبِّهني بهذا القائد الأمريكي ؛ ووجه الشبه اللباسُ لا غير ؛ ويقولها تعبيرًا عن ضيق صدره بهذا اللباس .

فلما أقبلْتُ عليه فُوجِئْتُ به يقول وبكل حزمٍ :

ـ اليومَ تذهبُ إلى مدارس المسلمين ، لقد أَخْقْتُكَ بالمعهد العلمي .

وكان هو المعهد الذي أنشأه سماحةُ مفتي الديار السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله ، ويديره أخوه فضيلة الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله ، وكان الوالد مدرسًا بهذا المعهد منذ إنشائه عام ١٣٧١ هـ

وكانت مفاجأة صاعقةً ؛ فأضربْتُ عن الدراسة ؛ إذْ كنتُ منسجمًا مع ذلك المعهد الألماني الذي كنتُ أدْرُسُ فيه ؛ ولا أحب تركَهُ ؛ ولم يَنْبس الوالدُ بكلمة ؛ تركني بإضرابي شهرًا ؛ حتى أحسستُ أنني سأخسر الدراسةَ كلها ، فذهبْتُ إلى المعهد العلمي الشرعي ؛ وكانت نقطة تحولٍ في حياتي ؛ الفضلُ فيها يعود ـ بعد الله ـ إلى الوالد رحمه الله .

كان مبنى المعهد العلمي في البداية في «أُم قُبَيْس» في قصر من القصور الطينية ، وكان مديره ابن المفتي الشيخ عبد العزيز آل الشيخ ؛ ثم انتقل المعهد إلى مبنى حديثٍ بُنِيَ خصيصًا له ، يقع في أول شارع الوزير من جهة حي «دُخْنَه» ، وبجواره مبنى بلدية الرياض ، وأمام مبنى البلدية حديقة كبيرة كانت تُسمى « حديقة البلدية » ، كانت متنَّدى ثقافيًا ؛ إذ بعد صلاة المغرب يُلْقي بعضُ العلماء كلماتٍ ؛ وأول ما سمعنا الشيخ محمد محمود الصواف رحمه الله في هذه الحديقة ..

وكانت الدراسة بالمعهد زاخرةً غنيةً ، والمدرسون من كبار الأزهريين ، ومن السعوديين الممتازين :

لا زِلْتُ أذكر مدرسَ الجغرافيا ؛ إنه الشيخ محمد علي عبد الرحيم رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية بالإسكندرية ، وأستاذ التاريخ الشيخ محمد المختار المزيد الشنقيطي ؛ من أهل المدينة النبوية ومن علمائها ، وكنا نظن أنه يحفظ تاريخ ابن كثير « البداية » عن ظهر قلب ؛ ولما تتبعناه وجدناه كذلك ..

وكان يدرسنا الفقه الشيخُ عبد العزيز السلمان ، والتفسيرَ الشيخُ عبد المحسن آل الشيخ ، والنحوَ الشيخُ علي الدخيل ، والتوحيدَ الشيخُ يوسفُ المَلاحي ..

وكان الشيخ المَلاحي جريئًا في الحق ، فألقى كلمةً في حديقة البلدية بعد صلاة المغرب انتقد فيها تلميحًا لا تصريحًا القوميةَ العربيةَ ، فنهض الشبابُ وضربوه ، وهُرعنا ندافع عنه ؛ فَنَشَبَتْ معركةٌ حاميةُ الوطيس بين الشباب ، وكلُّهم من طلاب المعهد ، وتطايرت « الشُمُغُ » و « الطواقي » ؛ حتى رددنا الهجومَ عن شيخنا بصعوبة بالغة ؛ فقد كان الناصريون أكثريةً ، وكادت الكثرةُ تغلب الشجاعةَ .

هذه كانت ظاهرةً واضحةً ، وهي أن معظمَ الشباب أيامَها يعبدون « جمال عبد الناصر » وكان مَدَ « الناصرية » في أوجه ، وكانت هذه الواقعةُ نذيرَ الخطر .

فأعلنوا في ذلك الأسبوع عن محاضرة بعنوان « معنى لا إله إلا الله » لفضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز ، وتوجَسَ الشباب أن الشيخ ابن باز لن يُفَوِّتَ الفرصةَ للحديث عن القومية العربية ، وعن جمال عبد الناصر ؛ فاكتظت بهم قاعةُ المحاضرات وما حولها ، وتكلم الشيخُ عن معنى لا إله إلا الله فأبدَعَ وعرج في آخر كلامه على القومية العربية وبيَنَ أنها مذهبٌ هدامٌ ، وأن من يُروِّج لها مخالفٌ للإسلام ..

وارتفعت هتافاتُ الطلاب ضد الشيخ ، وطَنْطَنَ في أرجاء المكان هتافُ « تحيا القومية العربية » ، و« تسقط الرجعية العربية » ؛ وحاول سماحةُ المفتي الشيخ محمد بن إبراهيم إنقاذَ الموقف ،

فطلب « الميكروفون » ؛ فأتوا باللاقط عنده ؛ فتكلَّم وهو جالس في مكانه ؛ فعاتب الشيخ ابنَ باز على أسلوبه وقال :

ـ كان ينبغي على فضيلته أن يتوخى الحذرَ في كلامه ، ويلتزمَ بأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة ..

لكنَّ الجميع انتبه إلى أن سماحته لم يغلط الشيخَ في مضمون كلامه ..

ولم يُرُقْ هذا العتابُ للشيخ ابن باز من شيخه المفتي ، وأظنه قدر أنه قد يُشكِّكُ في مضمون كلامه ، مما يضعف هجومَهُ على « القومية العربية » ؛ فطلب الكلمة مرةً أخرى وصَعَدَ على المنصة وأعاد الكرةَ موضحًا كلامُهُ أكثر من ذي قبل ، وبدأ الاضطرابُ يسودُ المكانَ ، وكاد الطلاب يشتبكون بالأيدي ؛ فقد انقسموا قسمين ، قسم يهتف « تحيا القومية العربية » وقسم آخر يهتف ضدها .

عندئذ أَمَرَ سماحةُ المفتي بإنهاء الجلسة ؛ وانصرف مغادرًا .

وكان الجو الفكري والأدبي حيا بشكل عجيب ، وصار المعهد العلمي بؤرةَ الحَراك الفكري والثقافي في الرياض ، وكانَ يُقام احتفالٌ أدبي كل أسبوع ، يكون عامرًا بالحيوية الأدبية والثقافية ، ويحضره سماحة المفتي ، وأخوه الشيخ عبد اللطيف ، والشيخ عبد العزيز بن باز ، وغيرهم من المشايخ ، ولم يكن الشيخ ابن باز يُفوت أيَّ ملحوظة تحتاج إلى تصويب إلا علَّق عليها ؛ ومع كونه كفيفَ البصر فإنه كان دقيقَ الملاحظة ؛ وله ذاكرة عجيبة ..

مـرةً أَجْـرَى مـذيعُ الحفـل الأدبي الأسـبوعي مقابلـةً مـع مـدير تحريـر جريدة « البلاد » الأستاذ « حامد دمنهوري » فتكرر في كـلام « دمنهوري » عبارة : أشكر الظروف ..

فانتقـده الـشيخ في ذلـك وقـال : لا يجـوز أن تـشكر الظـروف ولكـن تشكر الله الذي هيأ الظروف .

ولا أنسى ذلك الموقف العجيب ؛ حينما ألقى أحدُ طـلاب كليـة اللغـة العربيـة قـصيدةً قويـةً رائعـةً ؛ فلـم يملـك الطـلاب أنفـسَهُم فـارتفع التصفيق ؛ وكان التصفيق مصنوعًا ؛ فقام الشيخُ عبدُ اللطيف آل الشيخ باعتباره رئيس المعهد ؛ فوبَّخ الطلابَ على ذلك ؛ وكان مما قال :

ـ التصفيقُ للنساء والتكبيرُ للرجال ؛ فإذا أعجبكم شيء فكبروا .

واستمر الـشاعر في إلقـاء قـصيدته ؛ فاشـتد التـصفيق ؛ وكـان موقفًـا حَرِجًـا ؛ لأنـه يمثـل تمـردًا مـن الطـلاب عـلى رئـيس المعهـد ؛ وبقينـا متحيرين متوجسين : ماذا سيفعل ، وكيف سيواجه ذلك الجمهورَ المتمرد ؟

وقف الشيخ وتوجَّه بالكلام إلى الشاعر وقال بغضب :

ـ إنْ صفقوا لكَ مرةً أخرى أنزلك ولا عَدْتَ تطلع هذه المنصة مرةً ثانية .

وكان هذا التهديد كافيًا للردْع ؛ لم يصفِّق أحدٌ خوفًا من حرمانهم مـن شاعرهم المحبوب .

وأذكر من نماذج الحَراك العلمي أن أحدَ « الـمَراحين » ألقـى محـاضرة استمرت ساعةً ونصف ، كـان موضـوعها « الفـرق بـين هـل وهمـزة الاستفهام » ؛ وجاء بعلمٍ عجيب في النحو وفلسفته .

في هـذه الأجـواء العلميـة الزاخـرة ، وَاصَـلْتُ الدراسـَة في القـسم التمهيدي ؛ ومدته ثلاثُ سنوات ؛ وهـو يعـادل المرحلة الإعدادية ، ثم القسم الثانوي ومدته أربعُ سنوات ، درسْتُ منها سنَةً واحـدة ؛ قبل الانتقال إلى المدينة المنورة ..

لكن كانت هنا مشكلة طريفة واجهها الوالد رحمه الله بحكمة تربوية رائعة ..

لقد كُنْتُ شغوفًا بالرسم والزخرفة ، وهذه من بقايا تـأثيرات « معهـد الملك سعود للتربية والصناعة » إذْ كنتُ أدرس فيه قبل انتقـالي منـه في قـسم الرسـم والزخرفـة ؛ فـصِرْتُ أَقْضِي مُعْظَـمَ وقتـي بـين الفرشـاة والألوان ؛ وقد رسمْتُ لوحةً مائيةً للهَدَا بالطائف ، وكانـت اللوحـة ١٠٠ سـم × ٧٠ سـم ؛ واسـتغرقَتْ منـي سـنَةً كاملـة ؛ وكـان الوالـد يراقب ذلك منزعجًا ؛ دون أن يمنعني أو يعارضني .

ولما شعرْتُ بهذه المساحة من الحرية تمادْيتُ فرسمْتُ الوالدَ نفسَهُ ..

كانت له جلسةٌ مُطَوَلَةٌ بعد الغداء لشرب الشاي « الطُلْخ » ـ أي الخالي من السكر ـ ، فرأيْتُهُ من بُعْد بحيث لا يراني ورسمْتُهُ ، وكانت من أجمل اللوحات التي رسمْتُها ؛ وخبأْتُها لكيلا يراها الوالد ، ومع ذلك اكتشفها يومًا بين أوراقي ، فطلَبَ عليها بالحبر الناشف وكتب عليها جملة واحدة فقط : « حرام » .

وكانَ يُدرِسُنا الخطَ في المعهد العلمي الشيخُ « عبد السميع قَنْصُوه » ، وهو في نفس الوقت كاتبُ الشهادات ، وكان من أساتذة معهد

الخطوط العربية بالقاهرة ؛ ثم انتقل إلى « الرياض » ؛ فشكا الوالدُ إليه حَالي وجنوني بالرسم ، فقال له الشيخ « عبد السميع » :

ـ إْوَعى يا شيخ عبد الفتاح لا تعاقب الأبنَ على ذلك أو تضغط عليه ، دي هواية مسيطرة ولا يمكن الخلاصُ منها ؛ لكن يمكن التخفيفُ من جنونها ؛ أرسِلْ عبدَ العزيز إلي في منزلنا كل يوم بين المغرب والعشاء أُعلِّمهُ فنونَ الخط .

وكان ذلك ، وبَهَرني إتقانه لفنون الخط ؛ وسَحَرني جمالُ الخط العربي ، فتعلَّمتُ منه أكثر من ستة أنواع من الخط العربي ؛ كان أجملَها على الإطلاق « الثُلث » وكان أصعَبَها ، وشغلني الخط عن الرسم فكدت أنساه ، والخط علم جعل النبي ^ تعليمَهُ فداءًا لبعض أسرى بدر من المشركين وكفى بهذا دليلًا على مكانته .

[الحلقة القادمة : مجلة الثقافة ومجلة الرسالة]